الكنيسة والعولمة الثقافية في الألفية الثالثة[1]

بقلم الأب ميشال نجم

يتّجه هذا الحديثُ إلى معالجة العولمة الثقافية في الألفية الثالثة في تطورها ونوازعها ومشاكلها الاجتماعية المعاصرة وإلى إبراز تعدديتها وتأثيرها على أبناء الكنيسة عامةً وعلى أبناء الكنيسة الأرثوذكسية خاصةً. فالإنسانُ، ذلك الكائنُ الاجتماعي، يتفاعلُ، شاءَ أم أبى، مع حضارة عالم الألفية الثالثة وثقافته تفاعلاً يؤثّرُ في أسلوب حياته وتصرفاته. والواقعُ أنّ الإنسانَ المعاصرَ يبقى معتمداً على محيطه ومتأثراً به تأثراً كبيراً، حتى ولو سعى إلى تغيير وجهه. وفي هذه الألفية الثالثة من حياته لا يُفهَمُ الإنسانُ كفرد منعزل، إنما كعضو في مجموعة واسعة معولمة، يتأثرُ بها ويؤثّر فيها بأفكاره وأعماله وتصرفاته. فالمعلوماتُ التي يتقبلُها من قطاعات مختلفة، مثل الفضائيات والمذياع والتيلفيزيون ووسائل الإعلام الحديثة والإنترنت وكلّ الوسائل التكنولوجية الحديثة تمثّلُ دوراً في تكوين شخصيته وتفكيره، وتسمُ مجتمعَه بسمات عديدة بارزة.

في الأجيال السالفة كانت الثقافاتُ المحليةُ، وعلى الأخص الثقافات المتأثرة بروحانية الدين، تساعدُ المرءَ في تكوين شخصية سليمة. فالمرءُ كان يرمي إلى أنْ يتحلى بالمناقب وأهمها الحكمة والشجاعة والاقتدار والرضى. ونتجَ عن ذلك بناءُ شخصٍ طيّب مسؤول ومواطنٍ صالحٍ وأبٍ عطوفٍ وأمٍ رؤوم. لذلك شدّدت تلك الأجيالُ على أنّ المجتمعَ لا يستطيعُ أنْ يؤديَ مهمته وأنْ يحقّقَ الخيرَ العامَ ما لم يتم بناءُ الفرد الصالح على أساس روحانية أصيلة.

اليوم يواجهُ الإنسانُ المعاصرُ أزمةً حادةً، يُردُّ أسبابُها في الدرجة الأولى إلى الثقافة المعاصرة والحديثة *Modern Culture* التي تُوصف بأنّها ثقافةُ ما بعد الإيمان. فالدارسون لهذه الظاهرة يُدركون كيف أنّ الثقافة المعاصرةَ تلت الثقافةَ الدينيةَ التي كانت شائعةً في العالم الغربي حتى القرن الثامن عشر. وهذه الثقافةُ الجديدةُ برزت

---

[1] حديث أُلقي في جامعة البلمند في 4/10/ 2000

إلى حيّز الوجود لأسباب علمية وعملية وفلسفية واجتماعية. فالمحيطُ المعولمُ الذي يحيا فيه إنسانُ الألفية الثالثة يطبعُ حياته بطابعٍ جديدٍ لا مثيلَ له من قبلُ. والمناخُ الاجتماعي المتغيّرُ يوماً بعد يومٍ والتطوراتُ التكنولوجيةُ السريعةُ أمورٌ تؤثّرُ في شخصيته وضميره. وإذا ما تجاهلنا هذه العناصرَ فإننا نتجاهلُ الإنسانَ نفسَه ونتعامى عن أبعاد حياته الواسعة. ولأنّ الإنسانَ يحيا في محيطٍ عالمي واسعٍ تتكوّنُ فيه شخصيتُه وتفكيرُه، فهناك أسئلةٌ جوهريةٌ تطرحُ نفسَها وهي: كيف يحافظُ إنسان الألفية الثالثة على سلامة إيمانه؟ وكيف يساهمُ هو نفسُه في بلورة نهج حياته في هذا المحيط الجديد؟ أو بالأولى كيف تُساهمُ الكنيسةُ في تنشئته الروحية وسط هذه العولمة الثقافية؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بُدَّ من أنْ يستعدَّ المجتمعُ الكنسيُ وكلُّ إنسانٍ مؤمنٍ لتحمُّلِ هذه المسؤولية الشخصية والاجتماعية والعالمية وللاهتمام بطرائق العيش الفردي والاجتماعي. بناءً عليه، كانت هناك حاجةٌ ملحةٌ لتأملٍ كنسي صحيحٍ ولدرس أبعاد المبادئ الروحية والخلقية في ضوء التعددية الثقافية القائمة في المجتمع المعاصر وفي ضوء التطور العلميّ السريع وسرعة الاتصالات الالكترونية. إنّ التقدمَ العلمي السريعَ يُعطي أبعاداً جديدةً لمشاكل الإنسان الاجتماعية والخلقية، ويطرحُ مسائلَ جديدةً لم تكن قائمةً من قبل. فما أدخله الطبُّ الحديثُ على الحياة المعاصرة كالتلقيح الاصطناعي وزرع الأعضاء البشرية، وطفل الأنبوب والهندسة الجينية واستنساخ الكائنات cloning والذكاء الاصطناعي الذي يدفعُ الإنسانَ إلى الاستقالة من وظائفه الفكرية أمورٌ حريةٌ بالدرس لتقديم الحلول المناسبة لها ولتدريب المؤمن على مواجهة هذه التطورات. فالمجتمعاتُ المعزولةُ أصبحت شيئاً من الماضي. وتعدّدُ الثقافات والحضارات والأديان وأنماط الحياة هو واقعُ كلّ المجتمعات المعاصرة التي تدخلُ المدنيةَ المعاصرةَ يوماً فيوماً. بعضُها يتفاعلُ مع الآخر وبعضُها يذوبُ في غيره لتظهرَ ثقافةٌ عامةٌ شاملةٌ تصوغُها عواملُ متعددةٌ أو مجموعةٌ من ثقافات متشابهة ومتفاعلة. فوسائلُ الإعلام التي تُسيّرُها قوى سياسية واقتصادية وإيديولجية تغزو الثقافاتِ في آخر المعمورة وتقلّلُ من شأن القيم الدينية والأسرية المتوارثة.

لنستوعب هذه العولمة لا بدَّ لنا أولاً من أنْ نحدّدَ ولو بشكلٍ عامٍ معنى الثقافة *Culture* لأن تحديدَها صعبٌ:

الثقافةُ منهجٌ من الاهتمامات والعادات ورؤيةٌ يتخذُها الأفرادُ والجماعاتُ في مجتمعهم . إنَّها البنية الاجتماعيةُ والدينيةُ والعقليةُ والمظاهرُ الفنيةُ التي تميّز مجتمعاً عن مجتمعٍ آخر . وهي كذلك المحتوى الفكري والفني للمجتمع الذي نعيش فيه وموقف نظري وعملي من الحياة والإنسان، يميز جماعةً عن جماعةٍ أخرى .

كلُّ مجتمعٍ شادَ بنيته في مسار تاريخه وأنشأ أعرافه ومؤسساته الاجتماعية والصحية والفنية والعلمية الخاصة به . أما اليوم فقد أمست هذه الثقافاتُ متعددةً ومتفاعلةً ومتغيرةً في المجتمع الواحد بسبب سرعة الاتصالات والاقتباسات في كلّ صعد الحياة . فالثقافاتُ المحليةُ تتغيرُ يوماً بعد يوم وبعضُها يوشكُ أنْ يُصيبَها التفككُ والانهيارُ، لأنَّ العولمةَ الثقافيةَ تنتشرُ بسرعة هائلة . فالمعرفةُ العامةُ بالفنون الجميلة وتذوقها فقدت الكثيرَ من قيمتها وذابت معها الرهافةُ في الحس والشعور، لأنَّ الثقافةَ الترويجيةَ حلت محل الثقافة الحقيقية عند المتاجرين بالفن . والحراثةُ المعنويةُ للفنون اضمحلت وذهبت معها استساغةُ كثيرٍ من القيم الفكرية الإنسانية الشفافة .

لقد أصبحت الثقافةُ المعولمة تمرُّ من بلد إلى آخر "بلا جواز سفر"، بل "بلا أوراق"، وبلا "تأشيرة دخول" . ليس عليها أن تُبرزَ جنسيةً معينةً، أو حضارةً قوميةً، لأنَّها تنتمي إلى مجموعة عالمية . فمدُّ العولمة جارفٌ، كالسيل لا قدرةَ لمجتمعٍ واحد أو لامةٍ واحدة على مقاومته أو تداركه . في لعبة العولمة، الكبيرُ يبتلعُ الصغير، والقويُّ تكنولوجياً يسيطرُ على الضعيف، والمتسلّحُ بأسلحة المنتجَات الحديثة يفترسُ الأعزل . وإليه هناك هيمنةٌ ماليةٌ عالميةٌ ستؤدي إلى تدمير الاستقرار الاجتماعي وإلغاء الطبقة الوسطى لمصلحة الأثرياء .

إنَّ إفرازات العولمة وتكنولوجيات الاتصالات المتطورة، تُجبُرنا على التعامل مع الواقع المستجدّ، وعلى مواكبة كلّ جديد، أكان عادياً أم مميزاً . هوليوود، مثلا، تغزو العالم بسينماها التقنية . و"تفوقها" يمحو الثقافات المحلية المتعددة . وفي ظلّ تطور الترفيه المنزلي وانتشار استخدام الإنترنت، أضحت الشاشةُ الجداريةُ أو الشاشةُ الحاسوبيةُ المحورَ الركيزي الأساسي لأفراد العائلة . كما أصبح العالمُ قريةً صغيرةً .

لمعالجة هذه المسألة الخطيرة لا بُدَّ من تفحُّص بعض مقومات هذه العولمة الثقافية . فإنْ تفحَّصنا الإنسانَ المعاصرَ اليوم في المجتمع المعاصر نراه يجبُه، إن في ذاته أو في مجتمعه، نزعاتٍ مختلفةً أهمها :

العلمنة والفردية

إنَّ العلمنةَ (أو الدهرية) *Secularism* التي بدأت تسيطرُ بعد عصر النهضة قد أقصت البعدَ العمودي عن الحياة الإنسانية. فاستُبدلَ البعدُ الديني بنظرياتٍ معلمنة ظهرت كإيديولجياتٍ أو مدنٍ فاضلة. فضغطت على الحياة الإنسانية وأبقتها قائمةً على مستوى الأمور الفورية والمباشرة.

وفي الوقت نفسه أغفلت المفاهيمُ الفرديةُ (أو الفردانية) *individualism* البعدَ الأفقي للحياة البشرية إلا بمقدار استخدام الآخر كوسيلةٍ أو كسلعة ذات منفعة شخصية. وكذلك فقدت الأخلاقُ نفسُها الكثيرَ من مداها الواسع، فإذا الإنسانُ فردٌ لا عُمقَ له ولا مدى. وهذه النظرةُ الأحاديةُ الجانب لم تتأخر في أنْ تحوّلَ كلَّ شيء إلى ما هو مادي وحسي.

النزعة الإنسوية:

النزعة الإنسوية *Humanisim* هي التي تتخذُ من الإنسان في حياته الواقعية موضوعاً لها، بحيث يكون الإنسانُ وعالمُه الماديُ هما العالمُ الحقيقي. فما الإنسان بشيءٍ، سوى أنَّه من نتاج البيئة الطبيعية–الاجتماعية. الإنسانُ في ذاته هو الكائنُ المطلقُ الذي لا يعلو فوقه أيُّ كائنٍ آخر. والخيرُ الأعظمُ هو اقتناءُ السعادة التي هي قمةُ النجاح البشري. وبذلك لا يكونُ للإيمان بوجود الله أيةُ حقيقة موضوعية.

الإنسانُ هو وحده الكائنُ الطبيعي، وبالأولى إنّه الكائنُ الأسمى، وإنّ سعادته هي الخيرُ المطلق. وهذه النظريةُ تنطلقُ من المبادئ نفسها التي ينطلقُ منها المذهبُ الطبيعي الذي ينادي بأنّ الطبيعةَ هي المبدأ الأولُ لكلّ الأشياء. فالحقيقة لا تُوجد خارج الإنسان وعالم الطبيعة.

النزعة الاجتماعية:

النزعةُ الاجتماعيةُ *Sociologism* التي تردُّ كلَّ شيءٍ إلى علم الاجتماع، بحيث يتمُّ تخفيضُ كلِّ الحقائق الإنسانية إلى المجتمع البشري. في هذه النزعة يُرفضُ كلُّ ما يعلو على المجتمع وعلى التاريخ الإنساني. فما الإنسان

بشيء سوى أنه من نتائج المجتمع . فالحقائقُ جميعُها والمعتقداتُ والقيمُ لا تُفسَّرُ إلا كتعبيرٍ عن القوى الاجتماعية والنفسية .

نزعة الجدة:

نزعةُ الجدة *Neophilia* التي تدعو إلى التعلق بكلّ ما هو جديد . فالعتيقُ بال ورث، والمنتجاتُ الإلكترونية هي الجدة في الحياة المعاصرة . ولذلك تدّعي هذه النزعةُ بأنَّ الماضي لا علاقةَ له بالحاضر . فكلُّ الاهتمام ينصبُّ على العالم المعاصر دون تمييز ونقد . فعلى المرء أنْ يقبلَ المناخَ الفكري الذي يعيشُ فيه قبولاً مطلقاً ليحكمَ من خلاله على كلّ شيء . عملياً ، هناك التقانة *Technology* التي تحسبُ الصنائعَ والفنونَ المستخدمةَ لتوفير الأمور الضرورية بأنَّها هي التي تُدير العالمَ المعاصرَ وتُقدّمُ له السعادةَ والخير . مع مرور كلّ دقيقة يشهدُ العالمُ تطورات مذهلة تُدخلنا في حقول جديدة لا تتصورُها المخيلة . ونحن لا نزال في البداءة . وبذلك تمارسُ التقانةُ سلطتَها على كلّ العوامل الإنسانية .

النزعة العلمية:

النزعةُ العلمية تؤمنُ بالعلم كمخلص للإنسان من المرض والألم والشيخوخة . فعلمُ الفيزياء لم يَعُدْ مطابقاً للزي الحديث . فالحياوة (البيولوجيا ، علم الأحياء) الحديثة أصبحت موضوعَ إيمان الكثيرين . فبعضُ العلماء يؤمنون بأنَّ معرفةَ المورّثات *genes* تُعطينا الفرصةَ لتغيير وجه التطور تغييراً سريعاً ، بحيث أنَّ الإنسانَ سيكون أكثرَ صحة وذكاء ومعمَّرا . فالبعضُ يلوحون بأنَّ الألفيةَ الثالثة ستتوصل إلى استنساخ البشر في المختبر وإلى وضع هندسة بشرية جديدة . يقول المتمسكون بقيمة الثقافة المعاصرة إنّه يُمكننا الاكتفاءُ بالعلم من حيث قدرته على الذهاب إلى المسائل القصوى الدائرة على المعرفة البشرية . فكلّ الحقائق تقومُ على مبدأ المراقبة والرصد والمعاينة، لأنَّها أمورٌ تقودُ إلى قياس الأشياء وتقديرها . ولذلك نستطيعُ، على حدّ اعتقادهم، أن نفسّرَ العالمَ ونتنبأ عنه ونسودَه بهذه المقاييس . لذلك كانت الأمورُ التي لا تخضعُ للملاحظة العلمية بعيدةً كلَّ البعد عن الحقيقة . فالإنسانُ والعالمُ لا يُفهمان إلا بمفاهيم علمية، وأنّ الحقائقَ العلمية هي الحقائقُ الطبيعية الصحيحة .

النزعة الاستهلاكية والترفيهية:

على الصعيد الواقعي هناك تطورٌ اقتصاديٌ استهلاكي *consumerism* ينمو على حساب القيم الروحية والاجتماعية التقليدية. وفي هذه النزعة تكتسبُ المادية والعلمنة أرضاً صلبةً وتهددان القيمَ الاجتماعيةَ والدينيةَ وتُسببان ضرراً لا يمكنُ وصفُه. وأخطرُ ما فيها هو تجريدُ الإنسان من شخصيته البشرية المعروف ب *dehumanization*. فالتغييراتُ البنيويةُ وعولمةُ الاقتصاد تؤثران في الحياة البشرية في كلّ العالم. ونتيجة لكلّ ذلك هناك اتساعٌ في الهوة متزايدٌ بين الغني والفقير وكذلك تزايدٌ للهجرة إلى مراكز القوى الاقتصادية.

الثقافةُ الحديثةُ تنتمي إلى مذهب المتعة *Hedonism* القائل بأن اللذةَ هي أهمُّ ما في الحياة. ولذلك ينفق الأميركيون أكثر من 350 بليون دولار على الاستجمام، في حين أنهم ينفقون 110 بليون دولار على النشاطات الروحية والخيرية. كما يقضون 18 ساعة أسبوعيا أمام شاشات التلفزيون. وقد طال هذا المذهبُ بعضَ الدعاة الدينيين المتطرفين فأخذوا يُبشرون اليوم بما يُعرَف بإنجيل الرخاء والازدهار أو إنجيل الصحة والغنى *.the "Prosperity Gospel" or the "Health-and-Wealth Gospel."*

هذه النزعاتُ وغيرُها هي التي تقفُ وراءَ ظاهرة العولمة أو التعددية الثقافية *multiculturalism* ونمو المجتمع الدهري وتهميش الإيمان المسيحي. للوقوف أمام هذه الدوافع يحتمي إنسانُ هذا العصر بمحميات متعددة. فيأخذ الردُّ أحيانا على هذه العوامل أشكالاً مختلفةً في الأوساط الدينية، أهمها.

الاحتماءُ الأصولي الذي يرفض الثقافةَ المعاصرةَ ويهتمُّ بإعادة الأشكال الدينية والعادات المتوارثة بكل حرفيتها. فالثقافةُ المعاصرةُ في نظر هؤلاء هي محقٌ للإنسان الديني. ولذلك توصّل بعضُهم إلى أن يكونَ عدائياً في موقفه تجاه كلّ ما له علاقة بالمجتمع المعاصر. فانسحبَ إلى دائرة مجتمعه الديني المُغلَق، رافضاً كلَّ المكتشفات الحديثة ووسائل الإعلام. وإذا كانت القوميةُ تعكسُ حافزَ الإبقاء على الإرث المشترك، فإن الأصولية تعكس التوق الروحي للابتعاد عن مجتمع دهري آثم. وهذا هو نوعٌ من اعتزال الثقافة يقود إلى تطرُّف حادٍ أحياناً وربما إلى استعمال العنف لرفض الواقع الاجتماعي. والعنفُ هو الخطر الأساسي

المهدد للقرن الجديد، إذ إنَّ سباقَ العصرنة والحداثة قد لا يتغلبُ على الأصولية، وهنا يكمن الخطرُ. لذلك فإنها ستبقى حيةً مهدّدة. وهذا الدافعُ يطالُ الأديانَ القائمةَ اليهودية والمسيحية والإسلامية. كما طال بعضَ الأوساطِ الأرثوذكسية المحافظة. فهناك من رفضَ مؤلفاتِ اللاهوتيين الأرثوذكسيين الحديثين، لأنها تعالجُ مشكلةَ الإنسان في ثقافته المعاصرة.

الاحتماء الشخصي الذي يركز على أنَّ الإنسانَ ندمَ وحصلَ على الخلاص بعلاقة شخصية بينه وبين ربّه. فالثقافةُ بالنسبة إليه شبهُ موجودة لكنها لا تمتُ بصلة إلى عملية خلاصه. وهنا خُفِّضَ الخلاصُ إلى معنى ذاتي وشخصي. فقلَّل هذا الدافعُ من شأنِ تغييرِ وجهِ العالم، وكأنَّ رسالةَ المسيحِ لم تكن كونية.

الاحتماء التحريمي الذي يشددُ على تحريمِ النزعاتِ الثقافية، لأنَّ الدينَ والثقافةَ لا يتفاعلان من حيث المبدأ. فالإيمانُ غيرُ خاضعٍ لعاملِ الثقافة وعلى الأخص الثقافة المعاصرة. هذه الامتثاليةُ تعطي القيمةَ المطلقةَ للدين، دون ترجمته إلى عيشٍ يتفاعلُ مع المجتمعِ والعالمِ الحديث.

الاحتماء القومي الذي يتمركزُ حول الثقافة العرقية أو القومية التي يعتبرها أبناؤها بأنَّها أسمى من سائر الأعراقِ والقوميات. فما يُتوارث خلفاً عن سلفٍ من التقاليد العرقية والقومية هو المعيارُ الوحيدُ للثقافة والإيمان. فالإنسانُ المعاصرُ سيتخلى عن أصالةِ إيمانه إذا تبنَّى ثقافةً غربيةً عن ثقافته العرقية. لذلك لا خيار أمام أولئك المؤمنين بالثقافة العرقية سوى تجميع القوى القومية في تكتلٍ اقتصادي- سياسي وثقافي-ديني يضم الشعبَ بإمكاناته وطاقاته ووحدة إرادته. فمنعةُ الثقافة من منعة الأمة، ومنعةُ الأمة من منعة حضارتها وثقافتها.

الاحتماء التشريعي الذي يدعو إلى وضع دساتير تقرُّ باحترامِ التعددية الثقافية والدينية والاختلاف في المجتمعاتِ المعاصرة وإلى إنشاء مؤسساتٍ ثقافيةٍ تمثّلُ كلَّ المجتمعاتِ وإلى وضعِ مناهج دراسية تدعو إلى احترامِ التعددية وإلى إنشاءِ وسائل إعلامية تهتم بكل الفئاتِ وإلى فتح الحوارِ والنقاشِ حول مشاكلِ التعددية لإيجاد الحلولِ المناسبة لها.

أصالةُ الموقف المسيحي:

نحن نؤمنُ بضرورة المحافظة على الإيمان المسيحي دون أن تشوّهَه مآسي الواقع الحاضر . فالمشيئةُ الإلهيةُ الأبديةُ يجب أن تكونَ قائمةً في الأرض كما في السماء . فالميزةُ التاريخيةُ لإعلانه والتعبيرُ الوضعيُ عن هذا الإعلان لا يدلان على شيءٍ اتفاقي، إنما على فعل الله في العالم والتاريخ . ورغمَ أنَّ إنجيل ملكوت الله وضعَ في أطرٍ تاريخية محددة وارتبطَ بأحداث زمنٍ معينٍ فهو يحملُ فحوى أبدياً . وفي آخر الأمر، الإنجيلُ هو رسالةُ المسيح الذي هو "بالأمس واليوم وإلى الأبد ." ومتى شارك المؤمنون في الحياة الجديدة التي يهبُها لها المسيحُ كان التعبيرُ عن هذه المشاركة أمراً طبيعياً في حياتهم اليومية . فميزةُ الإنجيل الأساسية لا تسمحُ للإنسان من أنْ يُقدّمَ نفسَه تقديماً كلياً فحسب، بل تلتمسُ منه ذلك . وبما أنَّ كل بشرٍ كائنٌ فذٌ وفريدٌ لذلك لا يمكنُ إلا أن يحفظَ خاصيتَه الفذةَ عندما يُقدّمُ نفسَه لله أولاً وللآخرين ثانيةً .

في هذا الصراع الثقافي في العالم المعاصر على المسيحيين أنْ يُبرزوا أنَّ الحقيقةَ اللامادية هي الحقيقةُ الثابتةُ التي لا تتغيَّرُ . واجبُهم أن يُضفوا الروحَ على العالم المعاصر وأن يطهّروه من العوامل المادية والحسية التي تسوده . فالخلاصُ لا يتمُّ إلا بالتعلق بالقيم الروحية والأخلاقية .

إزاء بنية العالم المعاصر لا بدّ من ذكرٍ سريعٍ لنقائص هذه الدوافع المذكورة أعلاه ومن التشديد على ضعف التفسير الذي تقدّمُه في تحليل المجتمع والكون . المذهب الطبيعي، مثلا، لا يفسّرُ مصدرَ الفكر الإنساني ولا يعطي أيَّ دليل على مصدر القوة الخلاقة عند البشر . فالشخصيةُ الإنسانية لا تُلمس ولا تُقاس، والإدارةُ النابعة منها لا تُرى . كما أننا نلاحظُ بسهولة سذاجةَ الموقف الإنساني الذي يحسبُ الإنسان كائناً طبيعياً ، لأنه لا يعترفُ بدوافع الخبرة الإنسانية ولا يشيرُ إلى عطش الإنسان إلى الأزلية والكمال . كما يجعل الإنسانَ كائناً يائساً محكوماً عليه بالموت والفناء . والموقفُ التقاني يجعلُ من الإنسان عبداً للآلة، وموضوعاً أو شيئاً من أشياء المجتمع التقاني . وبذلك يوصلُ

هذا المذهبُ إلى القول بأنّ الإنسانَ وُجد للآلة، لا الآلة للإنسان . وهكذا يُخفقُ في تفسير تغرُّب الإنسان عن ذاته في المجتمع التقاني . الآلةُ وُجدت لتحلّ بعضَ مشاكل الإنسان، لا لتستعبدَه أو لتخلقَ له أزمات كبرى .

من الخطأ أيضا أنْ يكتفي المرءُ بالكشف عن تفاهة المجتمع وشرّه، والتنبؤ عن قدره المشؤوم . فملاقاةُ الخير لا تعني أنَّ حياةَ المجتمع هي ورطةٌ شريرةٌ للناس يُسرونّ فيها إن ابتعدوا عنها ويفتخرون إنْ لم يواجهوا الشرّ في المجتمع وثقافته . الكثيرون يختارون ذلك الانسحابَ إلى فردية منزوية أو فردية جماعات قومية عرقية مغلقة ويرغبون اعتزال المجتمع نفسياً على الأقل، من أجل تجنُّب المعركة القائمة بين الشرّ والخير . إنَّ موقفَ التحريم الذي ينحصرُ في النهي عن التفاعل مع الثقافة دون الحثّ على تغييرها لا يمتُّ إلى المسيحية بصلة .

العولمة ليست كلُّها سلبية ففيها إيجابيةٌ . هناك سرعةُ الإنتاج والخدمةُ الحقيقيةُ للعائلة الإنسانية بمجملها . لكنْ هناك الكثيرُ الكثيرُ من السلبيات كما ذكرنا . التكنولوجيا حياديةٌ أساساً، إذ هي بمثابة موزّعٍ للأفكار القائمة من علمية ودينية وسياسية وقومية , لكنَّ الاستعمارَ الثقافي الحديث يجعلُ التراثات المحلية تنقرضُ بسرعة هائلة ويخلق ردات فعل هائلة . والحقُّ، أنه بقدر ما يتمُّ ترسيخُ العولمة، بقدر ما يُرجَّح أن تكون ردات الفعل المحلية اكثر قوة وحدّة . فما من أحد يعمل كُخفير أو كفيل »للعولمة« . وبالفعل، فقد تبيَّن أنَّه بمقدار ما تصبحُ العولمة منتشرةً، بمقدار ما تقوى وتبرز ردات فعل إرتجاعية مُضرة . وهذه إن بقيت من دون معالجة، فإنَّها ستجعلُ المجتمعات كافةً مفتوحةً أمام أفكار أكثر سوءاً وإثارةً للأثرة وللحقد .

إنَّ محاولةَ تجنب التعقيدات الثقافية في العالم يقودنا إلى مسيحية جامدة لا توصلُ ولن توصلَ أبداً إلى تغيير وجه المجتمع . ونحن لن نكون أكثرَ من أشخاص يطمرون رؤوسَهم في الأرض لتجنُّب أي خطر يواجههم . لا يتطلَّبُ التوجهُ الروحي وجودَ لا مبالاة بنمط العيش وبمشاكل العالم، إنما يجعلُ تقويمَها ومواجهتَها ضروريين في ضوء المعنى والغاية من الحياة . بكلام آخر، إنَّ ميزةَ الإنجيل المطلقة تستلزمُ في الوقت نفسه التقبلَ الجامعَ لخاصية الإنسان . هذا الدور صعبٌ لان المرء ينزع أمام ضغط الشرّ إلى الاحتماء من قلق مواجهته، في حين أنَّ المطلوبَ هو المواجهةُ الشجاعة .

يقول الذهبي الفم: "أنا لا أؤمن بخلاص أي شخص لا يسعى إلى خلاص الآخرين." ففينا نوعٌ من الاستماعِ والاتصالِ يعرفُ طريقَه إلى الآخر ومن ثمَّ إلى المجتمعِ ويتعاملُ مع قضاياه بطريقة روحية. فعلينا أن نتقاسمَ كلَّ شيءٍ مع الآخرِ ليصحو المرءُ إلى طبيعته الحقيقية وإلى دعوته العميقة. واجبُنا أنْ نتعلَّمَ كيف نستمعُ للإنسانِ المعاصرِ ولهمومه وتطلعاته وتساؤلاته وكيف نُلبي حاجاته الحقيقية. التفكيرُ في ثقافة العصرِ هو دعوةُ الكنيسة وواجبُها لكي تتعهَّدَ مسيرةَ الخلاصِ وتترجمَه إلى واقعٍ حي. الأفعالُ هي التي تُعطي للأقوالِ مصداقيتَها.

الدينامية الروحية هي التي تستقبلُ مصائبَ العالمِ وهواجسَه بروحٍ صافيةٍ نابعةٍ من تحولٍ داخلي ليتورجي ونسكي يُنعشُه الروح القدس. فالنسكُ ملاقاةٌ لله وتطهرٌ يهدفُ إلى بثّ الروحِ بين الناس وتحريرهم من عبودية الماديات. فهذه الدينامية تساعدُ المؤمنين في ترجمة الخبرة الروحية إلى مواقف حقيقية تحتضنُ الآخر وتشهدُ للمسيحِ في العالم. فإمكانيةُ الإصلاحِ لا تتمُّ إلا بواسطة التسامي والارتفاع إلى الله ومن ثمَّ إلى الآخر. بين الله والإنسان شركةٌ مباشرة تنمو على قدر النعمة وعلى قدرِ السعي إلى إصلاح الذات والمجتمع. والمؤمن هو الذي يثقه بالله كمصدر الخير يقدر أن يغلبَ مشاعرَ القلقِ والخوفِ ويسعى إلى تحقيقِ انتصارِ الخيرِ وسط هذه المعاناة الطويلة.

إنَّ آباء الكنيسة عمَّدوا بعد نسكٍ وتطهرٍ ثقافات عصرهم ومسحوها بمسحة الروح القدس. فأبرزوا أنَّ العمر هو زمنُ عيشِ الإيمانِ والشهادة له في العالم. لقد فعلوا ذلك مؤمنين بأنَّ المسيحيين الحقيقيين لا ينغلقون على أنفسهم انغلاقاً أنانياً، ولا يكرهون العملَ من أجل تجديد ثقافة العالم وتغيير وجهها، لأنَّ الله دعاهم إلى العملِ من أجل خلاص العالمِ واستعادته، وإلى الشهادة لمحبة الله فيه. لكنَّهم لا يتشبهون بالعالمِ الساقط، لأنَّ تأثيرَهم الفعال في العالمِ سيكون مستحيلا. فشركةُ الصليبِ والقيامة هي ميزةٌ لمسرى المؤمنين في العالم. والمعنى العميقُ للتاريخِ لا يُكْتَشَفُ إلا من خلالِ هذا المنظور، الذي هو منظورُ الكنيسة. في هذا العالمِ المُعَلْمَن تُدعى الكنيسةُ إلى ممارسة تأثيرها الخلاق في البشرِ من خلالِ تعليمها وحضورها في العالم. وإذا واجهت الكنيسةُ مشاكلَ العالمِ في جسدها مواجهةً صحيحة، فإنَّها ستكون قادرةً على مساعدة العالمِ في مواجهتها.

دعوةُ الكنيسة هي في تقديس العقل والروح وكلِّ أوجه الحياة الحاضرة بحيث يستطيعُ المؤمنون أن يؤمّنوا التواصلَ المطلوبَ الذي يربُطهم بالمجتمع الذي ينهارُ شيئاً فشيئاً . فإنْ صارعَ المؤمنون العلمنةَ في داخلهم دون أنْ يَهتموا ببيئتهم الاجتماعية، فإنهم لن يحاربوا حتى العلمنةَ الموجودةَ في ذواتهم . ليست العلمنةُ علامةً فرديةً، إنما علامةٌ جامعةٌ للمجتمع المعاصر بأسره . لذلك على الإنسان المسيحي أن يُنمي كلمةَ الله في المجتمع، فيشاركَ في روحنة الثقافة ورفع مفاهيمها إلى مستوى الروح . الكنيسة في تاريخها لم تنبذ الثقافات المحلية ، بل تبنتها بعد أن طهرتها ومن ثم استخدمتها قالباً للتبشير، لأن الكنيسة من خلال خبرتها الليتورجية لم تكتف بإعلان الإنجيل بطريقة إعلامية، إنما من خلال الاتحاد الروحي مع الله وتفسيره حياتيا في المجتمع وثقافته .

ولعلَّ المسيحيين الحقيقيين قلةٌ في العالم . وهذا لا يُقلّلُ من تأثيرهم الخلاق فيه . فالأكثريةُ لا تغيرُ دائماً الحياةَ الاجتماعية، إنما الجماعةُ الناشطة . ولتحقيق ذلك لا بُدَّ من وجود جماعة مؤمنة، متماسكة ومتفقة في الرأي . وإذا بثَّت الكنيسةُ روحَ المحبة فإنَّها تكون قد أضفت من روحها على المجتمع المعاصر . وإذا حافظت على حريتها واستقلالها عن المناهج الاجتماعية والسياسية استطاعت أن تُساهمَ في إصلاح القوانين والأعراف والعادات والمفاهيم الاجتماعية على أساس محبة البشر واحترام حريتهم . إنَّ عطشَ الإنسان إلى الجديد لا يُحد ، لكنَّ هذا العطشَ يجب أن يُروى إرواء بما هو روحي، حتى يقودَه إلى السموّ إلى ما هو غير محدود وزائل . لذلك لا بُدَّ من التحرُّر من التصاقه الكلي بالحياة المادية، ومن استسلام إرادته إلى رغبات فارغة .

يجب على كلِّ من يسعى إلى الخير أنْ يهتمَّ بإعادة بناء الإيمان بالله وبهداية المجتمع . يمكنُ لأهل الإيمان الخير العمل معاً على بناء المجتمع الخلقي المتحرّر من أوزار الشر، من خلال إقامة علاقات إنسانية مبنية على الاهتمام بالآخرين، والعمل على إرساء قواعد تربوية وفكرية تنشئ شخصيات واعية حرة وأسر متماسكة، والشهادة لإمكانية التخلص من الدوافع الخطيرة التي تُهدّدُ الثقافة المعاصرة .

منذ سنوات دعت مؤسسة "البحث المسكوني والثقافي" في أمريكا الشمالية عشرين لاهوتيا لوضع برنامج لتجديد التعليم اللاهوتي فكنت أحد المدعوين إليه . فأجمع الحاضرون على أن التجديدَ في التعليم اللاهوتي يتطلبُ

انتباهاً للمفكرة الحقيقية للاهوت *the intrinsic agenda of theology* من خلال تعهده المجتمعَ المعاصرَ وصياغة الموقف اللاهوتي في عالمٍ أمست معاييرُه ضعيفةً وعلى وشك الانهيار . فاللاهوتُ يجب أنْ يؤكدَ على المشاركة في الحياة الإلهية وعلى أن يعكسَ تعهدَ الله للمجتمع والعالم .

لقد آن الوقتُ، في نظر هذه المجموعة اللاهوتية، لمشاركة المسيحيين في الحياة الفكرية والفنية والأدبية والثقافة بمعناها الواسع . فهناك إمكانياتٌ خلاقةٌ لتطويرٍ غني للمساهمات المسيحية في فكر المجتمع المعاصر . ولذلك اقتُرح توسيعُ الاتصالات بأولئك الأخصائيين بشؤون الحياة وبالمثقفين المؤمنين ليطال الفكرُ اللاهوتي النواحي المتعددة في الثقافة . وهذا الأمرُ هو شهادةٌ لقوة الإنجيل في المعرفة والحياة الاجتماعية والثقافية . فالنظامُ الفكري في المجتمع، في رأيهم، يجب أن تصوغه الروحانية المسيحية . فالارتباطُ بين اللاهوت والثقافة الاجتماعية يجب إعادةُ اكتشافه وإحيائه واسترداده في المجتمع المعاصر . فعلى اللاهوتيين ورجال الدين أن يتوجهوا إلى الجماهير والشعوب المتعددة ، ليجعلوا اللاهوت والروحانية والأخلاق مؤثرةً في حياتهم . ولذلك يجب أن يأتي تقديمُها محكماً بارعاً وناجحاً في مخاطبة أهل العالم . فلا بُدَّ من إيجاد لقاءات متواصلة بين اللاهوتيين والكتاب والصحافيين وكتاب الأفلام والمسرح والفنانيين والشعراء ومعدي الإنترنت وغيرهم لإيجاد أفضل الطرق في مخاطبة الإنسان المعاصر .

هذا نموذجٌ لوعي يجب أن ينموَ بين المسيحيين الأرثوذكسيين للتفاعل مع الثقافات التي تتعولمُ ولاستخدامها ، بعد غربلتها ، كأداة فعالة لرسالتها وبشارتها . لذلك كان علينا الاهتمام بوسائل الإعلام والإنترنت والصحافة للوصول إلى غير المؤمنين وإلى المؤمنين بالاسم . وهذا ما يعرف "بالليتورجيا بعد الليتورجيا ." هناك أمثلةٌ كثيرةٌ في تاريخ المسيحية تُثبت هذا الاتجاه,أهمها التعامل آنذاك مع الفلسفات السائدة .

دعوتُنا تكمنُ في أنْ نسعى إلى إقناع المجتمع بأن لا يخضعَ لاستبدادية الثقافة الدهرية . فالثقافةُ الدهريةُ لا يُمكنها أن تحلَّ محلَّ الرسالة المسيحية، إنما هي أسلوبٌ نستخدمه لإبلاغ البشارة . صحيحٌ أن التكنولوجيا باتت قادرة على اختراق وسائل المعرفة القديمة وعلى جعل مفهوم السيطرة على العقل أعسر وأصعب، وأنَّ تراثات الأمم ستزول ليحلَّ محلَّها مجموعاتٌ سيبرنية مرتبطةٌ بمعلومات تقدمها شبكاتُ الاتصال العالمية، فإن المسيحية ستبقى

منارةً تكشفُ قيمَ الثقافات وتفضحُ محدودياتِها وضعفاتها . في عصرِ التعدديةِ الثقافيةِ نحتاجُ إلى مقاييس كنسية لتمييز عناصرها . فمع أننا نحن في العالم فإننا لسنا من العالم (يوحنا 17: 15) . لذلك كان موقفنا من الثقافة موقفاً جدلياً ، موقفا للتضامن وموقفاً للرفض .

لذلك يجب التشديدُ على المسيحِ وعلى كنيسته التي فيها يتغيَّرُ الوجهُ الإنساني والحضاري والثقافي في مجتمع يخلع عنه الصفة المسيحية *dechristianization* ويوصل إلى توثين الفكر والشعور . من هنا يحتاج المجتمع إلى مجهود تبشيري معاصر . وفي وسَطِ هذا الارتباكِ والخلطِ تُقدِّمُ المسيحيةُ في بشارتِها جواباً فريداً ، لأنها تتجاوزُ كلَّ حتميةٍ ماديةٍ أو بيولوجيةٍ أو اجتماعيةٍ أو دنيوية . فالإنسانُ هو خَلْقُ اللهِ الذي أبدعَه بحريته ومحبته من العدمِ ليكونَ "على صورته ومثاله . " وبهما يرتفعُ كيانياً إلى الإلهِ اللامخلوقِ والأبدي جاعلا من تقدمه الروحي نموذجاً لطريقة وجودِه وتعامله . فالإعلانُ الإلهيُ لا يدعو الإنسانَ إلى الخروجِ من ذاته ومن العالم ، بل يُعيدُه إلى حقيقة طبيعته وإلى علاقته الصحيحة بالعالم . في شخصِ يسوع المسيح يجدُ الإنسانُ حياته الحقيقية ويستعيدُ وضعَه السابقَ ليعودَ إلى عظمته الأولى . هكذا يُشيرُ غريغوريوس النيصصي إلى أن حياةَ الإنسانِ الحقيقية "تُشابهُ الطبيعةَ الإلهية . " فتغرُّبُ الإنسانِ في هذه العولمة هو نتيجةٌ طبيعيةٌ لتغربه عن الله . لذلك استحال تجديدُ الثقافة من دون عودته إلى الله . فإذا أعاد إنسانُ العصرِ صلتَه بالله التي تتَحَققُ في المسيحِ استرجعَ كيانَه الحقيقي .

وإلى ذلك ، يجب أن نكونَ منفتحين على كلِّ العلومِ الأخرى . فما دام بعضها يبحثُ في حقيقةِ الإنسانِ ومعنى وجودِه فطبيعي أن نُراعيَ نتائجَ العلومِ المختلفة التي تتناولُ النطاقَ الروحيَّ والنفسي والبيولوجي (الحياوي) للوجود البشري . فأهلُ النسكِ استخدموا العلمَ والفلسفةَ منذ القرونِ الأولى ، لا من أجلِ صياغة محتوى الإعلانِ في المسيح والدفاعِ عنه فحسب ، بل من أجلِ إقامةِ نقاطِ ارتباطٍ بغيةَ إنماءِ الحوارِ مع العالمِ القائمِ خارجِ الكنيسة . واليوم نحتاجُ إلى استخدامِ الثقافة المعاصرة من أجلِ إقامة نقاطِ الارتباطِ بالعالم الحديث ، ومن أجلِ تقديمِ الحياة المسيحية للإنسانِ المعاصرِ على نحوٍ قريبٍ ومألوفٍ ، ومن أجلِ إعادةِ اكتشافِ الحقائقِ الأساسيةِ ووعيها وبثها في المجتمع .

جامعةُ البلمند ضرورةٌ من ضرورات الألفية الثالثة وضعَها صاحبُ الغبطة البطريرك إغناطيوس الرابع بعد أنْ نصبَ لها أهدافاً طموحةً ألا وهي ترجمةُ الفكر الأرثوذكسي إلى ثقافة العصر، ومواجهةُ العولمة بتفاعل العلم والدين، وإعدادُ أجيالٍ قادرةٍ على مواجهة تحديات التطور العلمي السريع بروح الإيمان الحي. فأزجاها لنا جامعةً أرثوذكسيةً فذةً غايتها ربط الإيمان بثقافة العصر وبسط الروحانية في المجتمع المعولم.

وثمة ضرورةٌ لذكر التجديد التبشيري في أبرشية أمريكا الشمالية بإمامة المتروبوليت فيليب حيث استُخدمت طرقٌ مبدعةٌ للتبشير بالأرثوذكسية في الثقافة الأنجلوسكسونية. فالحوارُ مع الثقافة الأمريكية أعطى للشهادة للمسيح بعداً جديداً في تلك الديار، فاهتدى الآلافُ من أبنائها إلى سراط الكنيسة الأرثوذكسية. والحقُّ أنَّ هذه الأبرشية الأنطاكية ظفرت برسالتها من خلال مخاطبة العالم الغربي بثقافته ولغته. وبذلك أعطت للبشارة بعداً معاصراً وأهّلت المجتمعَ الجديدَ بتقاليده الثقافية وحاجاته لفهم بشارة الربِ يسوع والتزامها قلباً وروحاً. ولأنَّ العولمةَ تنطلقُ أساساً من شمالي القارة الأمريكية فلا بدَّ للكنائس الأرثوذكسية أن تحتذيَ مثالَ الأبرشية الأنطاكية الحاملة الشعلةَ الهادية، فتسير على مثالها في مخاطبة الثقافة المعولمة حتى يُتاحَ للناس من القدرة ما يمكّنهم من اكتشاف إنجيل يسوع المسيح. ودون بلوغ ذلك فتورٌ ووهنٌ.

وبعدُ فهذه العولمةُ تستلزمُ تغييراً في موقف الإنسان الداخلي والخارجي. ولكن يبقى على المؤمن أن يُدرك في النهاية انقضاءَ الثقافة الحاضرة من غير أن يُديرَ ظهرَه لها، لأنَّه يحيا قوة الله المُجدّدة فيها. بهذه الطريقة يتجاوز القيودَ التي يفرضُها التعلقُ بكل ما هو زائلٌ وعابرٌ، ويصبحُ في موقعِ حرٍ وخلاق. وفي الوقت نفسه، تشيرُ نظرةُ انقضاء هذه الثقافة إلى أهمية حياة المؤمن الأرضية، لأنَّ خلاصَه الأبدي أو هلاكَه يتقرران من خلال موقفه وحياته على الأرض. في الواقع، يقبلُ الإنسانُ خلاصَه أو يرفضُه أثناءَ حياته على الأرض. الخلاصُ هبةٌ من الله، لكنَّ الإنسانَ مدعوٌ في حياته الأرضية والاجتماعية إلى الجهاد المستمر كي يحافظَ على دعوته ويساهمَ في تجديده الشخصي وتأليهه وفي هداية المجتمع وثقافته. هذا الرجاءُ يُقوي المؤمنين في مواجهة تلك الدوافع الخطيرة التي ذكرناها أعلاه ويشددُ الصبرَ في سبيل مواجهة ثقافة العالم. فهو ذو محتوى اجتماعي، لأنه يُظهرُ الميزةَ الاجتماعيةَ-الثقافية لحياة المؤمنين ونهج

حياتهم في العالم. هذه الروحُ التي تحرّك المؤمنين تجعلُهم يتفاعلون مع حضارة التعدد الثقافي في حياتهم الشخصية والاجتماعية بروحانيةٍ نابعةٍ من إيمانهم وتراثهم. وهذا التفاعلُ لا يؤذي المسيحي، إنما يساعدُ الآخرين ويريحُهم إراحةً كاملةً.

وقصارى القول فإنَّ تأثيرَ المسيحيين على نظامِ الحياةِ الاجتماعيةِ والثقافيةِ سيكون ممكناً من خلالِ الكنيسة. والكنيسةُ ببعدها العالمي مدعوةٌ اليوم إلى أنْ تعملَ ضد تهميشِ الثقافاتِ المحلية، وأنْ تجندَ قواها لمقاومةِ ثقافةِ الموتِ وثقافةِ إرضاءِ الرغباتِ والأهواءِ، مستخدمةً وسائلَ المعرفةِ والاتصالاتِ لنشرِ رسالتِها وتعليمِها. فتجديدُ العالمِ الذي أعلنته يظهرُ في تجديدِها للأنظمةِ الثقافيةِ القائمةِ في المجتمعِ المعولم، وتلهمُ المجتمعَ البشري بروحانيتها لتطهيرِ ذاته وتجديده.